تأثير الإسلام في الشعر في صدر الإسلام

كان للقرآن الكريم أثر بالغ في قلوب المسلمين وألسنتهم وفي كل جوانب حياتهم .فقد خالط قلوبهم القاسية فألانها وطبائعهم الجافية فأرقها .فأكسب ذلك لغتهم عذوبة في اللفظ ورقة في التركيب ودقة في الأداء وثروة في المعاني وأغنى لغتهم ووسع دائرتها باستحداث الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر.وهذه الألفاظ كانت معروفة في الجاهلية ولكنها في أكثرها لم تكن تدل على معانيها المستحدثة في الإسلام .

وإذا أردنا البحث عن أثر الإسلام في الشعرفي هذه الفترة وجدناه واضحا في شعر شعراء الدعوة الإسلامية الذي ظهر بعد الهجرة عندما استتب الإسلام ووقرفي نفوس المؤمنين.فبدأ الشعراء منهم يصدرون في أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية ومعانيه السامية التي آمنوا بها واستلهموها في شعرهم.وفي مقدمة هؤلاء الشعراء نجد حسان بن ثابث وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك.

كانت للشعر في تلك الفترة بيئتان رئيستان هما بيئة مكة وبيئة المدينة وكانت بينهما عداوة وخصومة شديدة قبل الفتح.وكان ازدهار الشعر في هاتين البيئتين مرتبطا ارتبطا كبيرا بالحروب الدائرة بينهما .

إضافة إلى هاتين البيئتين الشعريتين نجد بيئات أخرى أقل شأنا منها كالطائف والقرى اليهودية وكان فيهما شعراء يناصرون المشركين ضد الإسلام.وبيئة البادية حيث يوجد بعض الشعراء المسلمين.

وكان شعراء المدينة هم الأكثر تأثرا بالإسلام في أشعارهم.ولم يكن ذلك التأثير باهتا وضعيفا كما يتصور بعض الدارسين بل كان قويا لأنه لا يعقل أن يعيش شعراء الرسول في كنف الدعوة ومهبط الوحي ويوظفهم النبي في الحرب اللسانية ضد المشركين للذود عن حياض الإسلام ويكون شعرهم مع ذلك كله جاهليا أو امتدادا للجاهلية في الشكل والمضمون معا.

كان حسان بن ثابث الأنصاري كثير التأثر بأسلوب القرآن والاقتباس من ألفاظه ومعانيه والتشبع بروح الإسلام.ومن أمثلة هذا التأثر استعماله لبعض أسماء الله الحسنى بالمعنى الإسلامي كما في قوله

محمد والعزيز الله يخبره بما تكن سريرات الأقاويل

وكذلك استعماله لكلمة رسول بالمعنى الإسلامي في البيت الثاني من قوله

ألا أبلغ خزاعيا رسولا بأن الذم يغسله الوفاء

وبايعت الرسول وكان خيرا إلى خير وأداك الثراء

ومن مظاهر تأثره بالقرآن أيضا قوله في أبي بكر

والثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو إذ صعد الجبلا

وهو من قوله تعالى إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذ ين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار

فحسان بن ثابث كما يبدو من شعره كثير التأثر بالإسلام وقيمه ومبادئه.وقد كان ينظر إليه على أنه شاعرالرسول الذي يذود بشعره عن حياض الإسلام. رغم الجانب الجاهلي في شعره والمتمثل في هجاء المشركين بالضعة في الأنساب والعجز عن حماية الجاروالقعود عن الثأر والفرار من الحرب وغيرذلك من معاني الشعرالجاهلي في شعره.ففي كتاب الأغاني أن حسان بن ثابث وكعب بن مالك كانا يعارضان شعراء المشركين بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب.وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه.وعلى غرار حسان بن ثابث كان عبد الله بن رواحة يستلهم القرآن الكريم ويستمد منه معانيه وألفاظه في هجاء المشركين كقوله .

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

ويقول في موضع آخر

أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر

ولم يقتصر الشعر الممثل للإسلام على بيئة المدينة بل امتد إلى البادية التي وجدنا فيها نماذج وأصداء إسلامية ظهرت واضحة عند مجموعة من الشعر اء المسلمين المتأثرين بالإسلام الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم إبان الفتح أو بعده.كما وجدنا لمحات إسلامية عند شعراء آخرين أثناء حروب الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين

ومن شعراء البادية نذكرالعباس بن مرداس ابن الخنساء الشاعرة.وقد وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم قبل فتح مكة وأعلن إسلامه.ومن شعره قوله في مدحه عليه الصلاة والسلام

ياخاتم النبآء إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هداكا

إن الإلاه بنى عليك محبة في خلقه ومحمدا سماكا

وأكثر شعره في الحرب والفخر ببطولة قومه الألف من بني سليم الذين نصروا رسول الله

ومن شعراء البادية أيضا كعب بن زهير الذي أعلن إسلامه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وأنشده قصيدته التي مدحه فيها واعتذر إليه.ومدح المهاجرين.ومنها قوله

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

ثم مدح الأنصار في قصيدة أخرى منها قوله

يتطهرون كأنه نسك لهم بدماء من علقوا من الكفار

وفي هذا البيت يبدو الأثر الإسلامي واضحا .والقصيدة في أكثرها على النمط الجاهلي مثل قصيدته الأولى" بانت سعاد"

ومن أشهر شعراء البادية أيضا النابغة الجعدي الذي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه وأنشده شعره ونال رضاه وإعجابه به بحيث دعا له وشجعه.ومما قاله النابغة الجعدي

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتابا كالمجرة نيرا

وقد أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بقوله لا يفضض الله فاك.وقد حسن إسلامه وكان من المعمرين.

ومن شعراء البادية لبيد بن ربيعة العامري الذي أسلم وحسن إسلامه.وقد عاش فترة طويلة من عمره في الجاهلية .وهو من الفحول أصحاب المعلقات .وقد تنسك وزهد في الدنيا وهجر قول الشعر وانقطع إلى أعمال البر والتقى وجمع القرآن.

وهناك شعراء كان أثر الإسلام في أشعارهم ضعيفا كما هو الشأن في شعر الحطيئة مثلا.

أما بيئة مكة الشعرية فهي موطن شعراء المشركين .وكان من آثار الإسلام كثرة هؤلاء الشعرا ء وظهورهم المفاجيء بأعداد كبيرة .والمعروف أن مكة لم تعرف بشعر في الجاهلية. فكانت البعثة النبوية كفيلة بأن تدفع المكيين المشركين إلى قول الشعر كما دفعتهم إلى حمل السلاح ضد هذه الدعوة.ومن شعراء المشركين الذين كانوا يحاربون الإسلام بشعرهم عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب وأبو سفيان بن الحارث وغيرهم.وبعد فتح مكة أسلموا واعتذروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومدحوه وأشادوا بالقيم القيم الإسلامية.من ذلك مثلا قول أبي سفيان بن الحارث يرثي النبي صلى الله عليه وسلم

لقد عظمت مصيبتنا وجلت عشية قيل قد قبض الرسول

نبي كان يجلو الشك عنا بما يوحى إليه وما يقول

ومن أوجه تأثير الإسلام في الشعر توقف الشعراء الشعراء المسلمين عن النظم في بعض الأغراض التي لم تعد تتفق مع الدين الجديد كالغزل الفاضح والهجاء المقذع والمدح الكاذب .

ولقد لا حظ الدارسون للشعر في صدر الإسلام أن الشعراء قد تفاوتت حظوظهم من التأثر بالإسلام تبعا لاختلاف بيئاتهم الشعرية ومبلغ اتصالهم بالإسلام وتأثرهم به .كما لا حظوا أن الشعراء الذين أسلموا وتأثروا بالإسلام لم يتخلصوا من النزعة الجاهلية تماما . ورغم ظهور الروح الدينية في أشعارهم وتأثرهم بالقرآن واستمدادهم منه لم تبلغ هذه التجربة مداها ولم تغير من القصيدة العربية تغييرا جذريا ولم تضع هذه القصيدة في صورة إسلامية خالصة لأن هؤلاء الشعراء كانوا حديثي عهد بالجاهلية وكان الشكل الفني للقصيدة الجاهلية قد ترسخ في وجدانهم وألفت قرائحهم التعبيرعنه ولهذا كان التخلص من آثاره يحتاج إلى وقت أطول.ونحن نعلم أن معظم هؤلاء الشعراء قد تم نضجهم الفني في العصر الجاهلي واكتملت لهم فيه مقومات فنهم ووسائله.ولذلك لوحظ أن الشعراء في هذه الفترة لم يتخلصوا من الظلال الجاهلية في أشعارهم التي كان فيها ضرب من المزاوجة فهم ينتمون فنيا إلى القالب الجاهلي الموروث وينتمون وجدانيا إلى الدين الجديد بقيمه ومبادئه.ورغم كثرة الألفاظ الإسلامية وحضور المضمون الفكري الإسلامي في أشعار هؤلاء الشعراء كان شعرهم قليل الحظ من الناحية الفنية لغلبة النزعة التقريرية عليه والصياغة المباشرة للمعاني الإسلامية.وكان ذلك هو المدخل لوصف هذا الشعر بالضعف من لدن بعض الدارسين القدامى والمحدثين لأنهم وجدوا فوارق واضحة بين الصياغة الشعرية في الجاهلية والإسلام.وقد دفع عنه هذه التهمة دارسون آخرون وردوا ما لوحظ من ضعف فيه إلى طبيعة المرحلة الانتقالية التي مر بها الشعرالإسلامي في تلك الفتر